

تأثير الأدب الأندلسي في الأدب المشرقي**(الظاهرة اللغوية)**

د. أحمد المصباحي

(الدار البيضاء المغرب)

موضوع هذا البحث سيتناول بعض مظاهر التميّز الذي أنجزه الأندلسيون في مختلف حقول المعرفة على مرّ العصور. وتلافيا للسقوط في متاهات من الجزئيات لا نهاية ولا حصر لها، ونحن نجهّد أنفسنا للعثور على بصمات من ذلك التميّز، يمكن القول بأنّ الأندلسيين حقّقوا شيئا طالما نصبوه هدفا من أهدافهم الكبرى أثناء تأسيسهم لبنيان حضاري أندلسي يكون موازيا للبنيان المشرقي ومكمّلا له في الوقت ذاته، إنّه ذلك التفرد الذي مكّنه من تجاوز عقدة التلمذة تجاه المشرق، والذي نستطيع أن نبرزه في الأشكال التالية :

1- جهود الأندلسيين العلمية.

2- تأثير الإبداع الأندلسي في نظيره المشرقي.

3- إدراج المادة الأدبية الأندلسية في الكتب المشرقية.

4- تدريس علماء أندلسيين في المشرق.

هذا حسب ما توصلنا إليه ونحن نسلط الضوء على المجالات التي تفوّق فيها الأندلسيون على زملائهم المشاركة. ولا شك أنّ هناك جوانب أخرى غير هذه يمكن إضافتها إلى تلك التي يراها سواي من الباحثين جديدة بلغت الانتباه إليها. وهذا شيء محتمل جدّا، ما دام الموروث الثقافي الأندلسي يحتضن في أحشائه ذخيرة غنيّة بالعطاءات، وإنّ قسما كبيرا منها لا يزال محجوبا عنا ليومنا هذا. ونظرا إلى الحيز الزمّني الضيق المسموح به في مثل هذه المناسبات فإنّني سأكتفي بالحديث عن المظهر

الأول فقط، فأقول : إنه منذ أن أطلق ابن الرّيبب القيرواني ⁽¹⁾ صيحته، التي اتهم فيها الأندلسيين بتقصيرهم في تدوين مآثرهم، أو منذ أن قدّر لكتاب العقد الفريد أن يصل إلى يدي الصّاحب بن عباد ليصدر ذلك الحكم القاسي على الأدب الأندلسي والمتمثل في عبارته الشهيرة « هذه بضاعتنا ردت إلينا ». ⁽²⁾ والأندلسيون يجدّون في البحث عن مخرج.

يثبتون فيه ذواتهم. وكانت أولى الخطوات للوقوف أمام زملائهم المشاركة ندًا للندّ صرفهم حيّزًا لا يستهان به من اهتماماتهم لتقييد ما تتفقّ عنه قرائح الأندلسيين بعد أن ضربوا بسهم وافر في مجال الإبداع الأدبي وغيره من فنون التّأليف. وكانت الخطوة الأولى كما هو معروف على يد الحكم المستنصر [ت : 976/366] الذي يرجع إليه الفضل في تحفيز خيرة من متقّي عصره لتخليد اسم الأندلس في سجلّ الإنسانية ³. ثمّ تلتها مبادرة ابن حزم [ت : 1063/456] في ردّه على ابن الرّيبب القيرواني من خلال جرده القيم لحصيلة الأندلسيين في شتى أصناف المعرفة ⁽⁴⁾، بعد ذلك أعقبتها رسالة الشّقندي [ت : 1231/629] ⁽⁵⁾ التي نوّه فيها بأبناء وطنه مضاهيا بهم منافره ابن المعلم الطنجي... إلى غير ذلك من الردود المباشرة التي تصدّت لإزالة كلّ غبن يمكنه

(1) الحسن بن محمد بن أحمد بن الرّيبب القيرواني [ت : 1029/420] عالم وشاعر له مكانة مرموقة بين أدباء عصره. كان معاصرا لعبد الكريم النّهشلي. انظر : الذّخيرة . 133/1، الأنموذج ص : 111، النفح 301/2 و 156/3، إنباه الرّواة 353/1، سرور النّفس للثّيفاشي. ص : 137. المسالك والممالك ب 93 و 94. ظ م 73 و 74 ظ ي 319 - 321، الوافي بالوفيات : 237/12. عيون التّواريخ لابن شاطر الكتّبي : وفيات سنة 420. بغية الوعاة 525/1، شعراء القيروان، ص : 71، معجم أعلام الجزائر ص : 69، النّقد الأدبي في القيروان لأحمد يزن. ص : 305.302.79.71.

(2) انظر مثلا تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري ص : 628.

(3) انظر : تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة. إحسان عبّاس . ص : 55.

(4) انظر نص الرّسالة بالذّخيرة 136/1 وبالنفح 158/3.

(5) انظر المغرب 28/1 وانظر الفهرس، اختصار القدح ص : 138 . النفح 186/3 وانظر الفهرس.

أن يسيء إلى الأندلس، وفي هذا السياق كذلك يجوز أن نعدّ المصادر الأندلسية التي أرخت للأدب والعلوم الأندلسية ابتداء من ذخيرة ابن بسّام رغبة غير مباشرة من لدن أصحابها لإثبات حضور الشخصية الأندلسية. إذن جهود متضافرة صدرت عن كلّ الطّاقات الحيّة لتقدّم الثّمار المرجوة التي أهلت الأندلسيين وبتدرّج تصاعدي لاحتلال موقع مرموق في علوم اللّغة سواء وهم يناقشون الآثار الواردة عليهم من المشرق أو وهم يكوّنون مثار عناية واهتمام لأفكارهم التي تناقلتها أمّهات الكتب المشرقية أو أنّ مؤلّفاتهم في تلك العلوم غدت ركيزة هامّة، فعمد كثير من علماء المشرق لشرحها وتقريبها لدى القراء. وهنا سأقف عند شخصية فذة مثّلت الفئة الأولى أحسن تمثيل ألا وهي : شخصية أبي بكر محمّد بن الحسن الزبيدي [ت : 989/379 (1)] والذي قيل في حقّه «كان واحد عصره في علم النّحو وحفظ اللّغة، وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنّوادر إلى علم السير والأخبار، ولم يكن بالأندلس في فنّه مثله

(1) انظر ترجمته في : تاريخ علماء الأندلس، في مواضع متفرقة، الجمهرة ص : 476. المقتبس تحق شلميتا ص : 31، جذوة المقتبس 85/1 وانظر الفهرس. المطمح ص : 276، ترتيب المدارك 511/4. فهرسة ابن خير في مواضع متفرقة . بغية الملتمس 93/1، المعجب ص : 49. المغرب 255/1 و324. العبر 12/3. النفح 38/7 اليتيمة 80/2. الأنساب 249/6. المحمدون من الشعراء. ص : 286. إنباه الرواة 108/3 وانظر الفهرس. وفيات الأعيان 372/4، إشارة التّعيين. ص : 165. تذكرة الحفاظ 982/3. سير أعلام النبلاء 417/16. الوافي بالوفيات 351/12. عيون التّواريخ 212/12. مرآة الجنان 409/2. الذبيح المذهب. ص : 358. طبقات ابن قاضي. 37/1. بغية الوعاة 84/1. المزهر. 87/1 وانظر الفهرس. شذرات الذهب 417/4. معجم الأدباء 179/18. روضات الجنّات ص : 176. شجرة النور الزكية 100/1. كشف الظّنون 1106/2. 1107. 1428. 1442. 1548. هدية العارفين 51/2. معجم المؤلّفين 198/9. تاريخ الأدب العربي. لبروكلمان 280/2. تاريخ آداب اللّغة العربيّة 611/1. تاريخ الأدب الأندلسي. لإحسان عبّاس ص : 55. معالم تاريخ المغرب والأندلس. لحسين مؤنس. ص : 389. أعلام. 82/6، الفهرس التّمهيدي للمخطوطات المصوّرة. ص : 407. فهرس المخطوطات العربيّة المصوّرة لفؤاد السيّد 366/1.

في زمانه (1) « هذا بالإضافة إلى موهبة شعرية يروّج بها عن نفسه من حين لآخر عن صرامة البحث العلمي الجاد والجاف.

وما يعنيها من الزبّيدي هذا بعض مؤلفاته التي كشفت عن مقدرة الرجل العلمية منها:

أ- مختصر العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، والذي ثمنه الفتح بن خاقان قائلاً : «وله اختصار العين للخليل، وهو معدوم النظير والمثيل (2)»، إذ أصبح مصدراً يتهافت عليه الأندلسيون لمدارسه «لأنه أتمّه باختصاره وأوضح مشكله، وزاد فيه ما عساه مفتقراً إليه (3)». كما قال ياقوت الحموي في معجمه. أمّا السيوطي فقد قال رواية عن أبي الحسن الشّاري : «المختصرات التي فضّلت على الأمّهات أربعة : مختصر العين للزبّيدي، ومختصر الزّاهر للزجاجي، ومختصر سيرة ابن إسحاق لابن هشام، ومختصر الواضحة للمفضّل بن سلمة (4)». ويتابع الشّاري قوله : «وقد لهج الناس كثيراً بمختصر العين للزبّيدي فاستعملوه وفضلوه على كتاب العين... وفضلوه أيضاً على سائر ما ألف على حروف المعجم من كتب اللّغة مثل جمهرة ابن دريد (5)». إذن نحن إزاء عالم كفاء، واثق من أدواته العلميّة يتناول باختصار - زيادة أو نقصاً - جهود عالم آخر لا ينكر أحد أهمّيته القصوى والعلاقة خاصّة على مستوى تقنين موسيقى الشّعر العربي ألا وهو الخليل... هذا مع التّذكير بأنّ أبا بكر اكتسب ما اكتسب من مؤهلات ثقافيّة فوق أرض وطنه الذي لم يبرحه قطّ، ومع ذلك وجد نفسه قادراً على التّمييز بين المادّة اللّغويّة الصّحيحة والمصحّفة والمشكوك فيها في أوّل مصدر

(1) وفيات الأعيان . 372/4.

(2) المطمح . ص : 276.

(3) معجم الأدباء 181/18.

(4) المزهري 87/1.

(5) نفس المصدر والصّحفة.

تفرّغ له صاحبه لحصر المعجم العربي ⁽¹⁾، بل وأكثر من هذا فإنّ الزبيدي اجتهد وأضاف مواد جديدة لم ترد في الأصل رغم أنّه اختصار له. وعمل مثل هذا يميّط اللّثام عن حقيقة باهرة وهي إلى أيّ مدى وصلت إليه النّهضة العلميّة في الأندلس والتي بلغت ذروتها في عهد الحكم المستنصر، وكان معظم الموروث اللّغوي خصوصا والثّقافي عموما للعرب انتقل إلى الأندلس وأصبح في متناول أيديهم رغم بعد الشّقة، مثلهم في ذلك مثل إخوانهم المشاركة يعرفون دقيقه وصحيحه ودخيله.

ب- « الاستدراك على سيبويه » : وهو الكتاب الثّاني الذي برهن فيه أبو بكر بشكل جليّ عن عمق تكوينه العلمي، لأنّه لا يناقش إلّا الرّموز المتألّقة في التّراث العربي قاطبة، وما هو يستدرك على سيبويه الذي كان الكلّ مشرقا ومغربا يتهيّب من الاقتراب من مؤلّفه « الكتاب » لما للرّجل من استيعاب باهر لأسرار اللّغة العربيّة معجما ونحوا وصرفا بحيث « كأنّ أهل اللّغة قد تحاموا شرحها، وتقادوا من تفسير غريبها، وشهدوا لسيبويه بالتّقدّم في علم اللّغة بما أثبتّه في كتابه منها، حين أيقنوا أنّه لم يعن بنقلها إلّا بعد إحاطته بعلمها وتفسير مشكل غريبها ⁽²⁾ ». ومع ذلك وجدنا الزبيدي لا يعاني مثل ما عاناه زملاؤه هنا وهناك من تهيب أو تراجع عن تناول كتاب سيبويه. وفي نظري أنّ مجرد إقدام أبي بكر على مناقشة "الكتاب" هو وحده كاف للدّلالة على قيمته العلميّة، لقد أمعن النّظر في مصنف سيبويه فاكشف أنّ في الكتاب نقصا لم يهتد إليه غيره خاصّة في أبنية الأسماء والأفعال، إذ عثر على ثمانين وزنا لم يدرجها سيبويه بين ثنايا صفحات كتابه، ثمّ إنّّه لم يقف عند هذا الحد وإنّما تجاوزه إلى شرح غريبه الذي تحاشى سواه من العلماء الخوض فيه، هذا مع تواضع جم سواء مع الخليل أو سيبويه لا نشتم فيه أيّة رائحة للتعالّم.

(1) انظر : المزهري 76/1.

(2) حقّقه أغناطيوس غويري . روما سنة 1890.

ج- طبقات النحويين واللغويين : وهو الكتاب الذي اشتهر به الزبيدي، وقد صار منهلاً عذبا للأندلسيين وللمشاركة معا لرصد جمهرة النحاة واللغويين في المشرق والأندلس. فقد اعتمده القفطي والسيوطي والمقريزي والحموي وغيرهم من الأندلسيين (1).

والخلاصة، أنه من خلال شخصية واحدة من بين شخصيات أندلسية أخرى ستكون في مستوى أبي بكر العلمي أو أكثر من جهة، وفي عصر مبكر بالمقارنة لما بقي في عمر الوجود العربي بالأندلس بعد عصر الخلافة من جهة ثانية، وجدنا إلى أي حد استطاع الأندلسيون الوقوف أمام زملائهم المشاركة ندًا للند في الكتابين الأول والثاني ثم التفوق عليهم بالاعتماد على تلامذتهم الأندلسيين لاستتمام معارفهم كما هو الحال في الكتاب الثالث.

(1) الحركة اللغوية في الأندلس ص : 142.